مواقف مؤثرة

في تاريخ

محمد بن عبد الله

سيد العرب

والعجم

والإنس والجن

اللهم صل وسلم وبارك عليه وآله

للمؤلف

بعض الكتب المطبوعة
مما له علاقة بموضوع هذا الكتاب

◆◆

محمد النبي العربي

محمد في نظر المستشرقين

ماذا يجب ان تعرف عن محمد والاسلام

العرب «مجموعة تاريخية»

ابو بكر الخليفة الاول

عمر بن الخطاب

عثمان بن عفان

علي بن ابي طالب

فاطمة بنت محمد

الحسين بن علي

297.63
A165mat
C.1

عمر أبو النصر اليافي

مواقف مؤثرة
في تاريخ
محمد بن عبد الله
(الباب)
سيد العرب
والعجم والإنس والجن

59643

اللهم صل وسلم وبارك عليه وآله

لجنة النشر العربية
دار الاحد - بيروت

الطبعة الاولى
١٣٦٤ — ١٩٤٤

حقوق الطبع والنشر محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وإهداء

هذا كتاب غريب شأنه ، جليل خطره ، وصفت فيه الساعات الفاحمة المفجعة من حياة سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم .

وما كنت افكر في نشره لايام خلت ، ثم اراد الله ان ينشر ، فقلت في نفسي اسويه للناس كتاباً ثم ادفعه لشباب العرب يقرأون فيه عظة الايام وحكمة الاجيال ، فلا يحتويهم الخوف ان أوذوا ، ولا يعتورهم الاشفاق ان اخفقوا ، ولا يتعتهم اليأس ان فشلوا ، ففي تاريخ سيد العرب من العظمة ما يجنبهم الخور واليأس والاستخذاء ، وفي بطولته وتضحيته وصبره على الاحداث ، من الصور والالوان ما يعلمهم ان حياة الابطال على هذه الارض ليست من النعومة والليونة والطراوة بالقدر الذي يظنون ، وان الدنيا خشنة جافة شاقة ، وان الرجل من

يعتمد على نفسه ، ويؤمن بربه ... ويسير سبيله قُدماً الى حيث الظفر والانشاء والاحسان والاعمار.

***

وكتبت هذا الكتاب في ساعات غمرتني فيها فنون من الصور والرؤى ، فقد كان همي ان انقل للجيل الجديد صورة رائعة من حياة سيد العرب ومآسي رسول الله وكيف أوذي وعُذب وأهين ، في سبيل الحق والمثل العليا ، وكيف تنكر له قومه واعتزموا قتله ، فهاجر الى المدينة ، لعله يجد فيها ما لم يجده في بلده وعند قومه ، من التأييد والتشجيع حتى ينشر دعوته ويؤدي رسالته ...

وكان من همي ان اعرض للارض التي عاش فيها سيد العرب عرضاً رقيقاً ، وكيف انها عارية ماحلة حارة باردة ، بعيدة عن الصخب والضجة ، بحيث لا تساوق الارض التي نعيش عليها في كثير ولا قليل ، عارية تتراخى الوانها ، فلا تثير منا الاهتمام ، ننظر الى السماء فتنكشف لنا عن صحو ليس لنا به عهد ولا الفة ، فنحن في جوار الشمس وموطن الاحلام ، حتى اذا ما حدد واحدنا النظر عن يمينه وشماله ، واطل على الفضاء اخذته الصحراء ، وتملكته الرعشة واستهواه ما يحسه في مثل هذه الوحدة من قرب الى الطبيعة ورب الطبيعة ...

وكذلك يستشعر المرء انه في ارض قد تثاقلت

عنها الحضارة فلا تشبه الارض التي نعيش عليها ، انها بعيدة عن الزخرف الذي نجده في مشارف الشام حيث الحقد والغرور ، والصخب والضجة ..

***

فلما انتظمت هذه الصفحات كتاباً ، خيل اليّ انها تصلح لتقرأ وتنشر بين الناس ، وانها تستحق ان تُعرض للشباب الجديد ، يجد فيها من الاحاديث عن طفولة سيد العرب ، ما يثير اهتمامه بطفولته ، ويقع فيها على هذه المآسي التي تبسطت في وصفها ، وهذه الاشجان التي سلخت الساعات في تصويرها ، فيذكر اشجانه ومآسيه ، مدرعاً بالصبر والجلد على المضي في سبيله ، حتى يظفر بما يريده من عمل نافع وحياة مفيدة ...

***

مرّت على الارض فترات من الزمن ، كان الناس فيها يعبدون الابطال ، سواء اكان البطل رسولا من رسل الله ، ام كان عبقرياً من عباقرة الارض ، ولكن سيد العرب ارادنا على غير ذلك ، وجنبنا عبادة الانسان ، سواء اكان رسولا مرسلا ، ام عبقرياً عظيما ، ودعانا الى عبادة الله وحده لا نشرك به ، سبحانه لا آله الا هو ، ولولا هذا التحذير الصارخ الذي دعا اليه ، ونادى به ، لعبد الكثيرون هذه الشخصية العذبة الرقيقة القوية الصلبة ، فان في

محمد من البطولة والعبقرية والسمو ما يجعله امة وحده لا يدانيه احد من رجال العالم من قديم وحديث..

آمن محمد بدعوته ، وآمن بالوحدة السياسية والدينية التي كان يدعو اليهما ، وكان يعتقد انه لا معدي لابنائه من بعده عن تأثر سياسته وتتبع سنته ، فاذا مات فلن يضير موته الدعوة ، ولن يضعف مآبه الاسلام ، وكان في ايمانه هذا مؤمناً ان ابناءه سوف يتأثرون تعاليمه ووصاياه ، فلا يفرضون لغير الاخلاق سلما الى المجد ، ولغير الحرية سبيلا الى الحياة ...

لقد كانت آخر كلماته دعوة الى الوحدة ، وهدم للعصبية ، ونداء الى العمل الصالح ، والرحمة والاخوة الانسانية ، وكل ما ارجوه ان يقع كتابي هذا من القراء الموقع الذي يحفزهم على المضي في طريق سيد العرب ، بحيث يصبحون كانهم اللجة القوية الصاخبة ، تعلو حتى تساوق في ارتفاعها الجبل الشاهق ، ثم تنحدر فتبتلع في انحدارها كل ما هو حقير وصغير ...

***

الاهداء

وكذلك انتهى من المقدمة ، وهو امر لا معدي عنه لمن يريد ان يضع للناس كتاباً ، وهو كتاب ارجو ان اوفق في اهدائه كما وفقت في وضعه ، وقد

تعود القراء مني تجنباً عن الاهداء ، وتخلفاً عن مسايرة الكثيرين ممن يؤلفون ويكتبون ، ولكني مبدل اليوم من عادتي ، ومقدم كتابي هذا ، الى نسيب كريم وابن عم كريم ، شق طريقه في الحياة واحسن في كل ما قام به ، وانصرف له ، وكان في اعماله واخلاقه ، مثالا يحتذى لاهله وانسبائه ، فهل يتكرم ابن العم السيد غالب ابو النصر اليافي بقبول هذا الكتاب الذي ارجوا ان اكون فيه عند حسن ظنه والذي قصدت فيه الى تمجيد الصبر والرجولة والتضحية ، وتحمل المآسي والمصاعب ، في سبيل الامال والاماني العظيمة ، لان النفوس الكبيرة لا تستخذي للحياة الجاهمة العابسة ، ما دامت تحمل في قلبها الايمان بسيد العرب ، الذي كانت حياته عبارة عن انشودة عذبة ، استحالت بالصبر والتضحية والرجولة من مدينة منعزلة في الصحراء ، الى مدن بعيدة ، واقاليم شاسعة ، وممالك لا تغيب عنها الشمس وحضارات ما تزال حتى يومنا هذا ، نشيدا عذباً ، وكتاباً ضخما . . .

بيروت محرم ١٣٦٤
كانون الاول سنة ١٩٤٤

المؤلف

كلمة من المؤلف

•

يرى المؤلف من واجبه الصلاة
على رسول الله عدد ذكر اسمه
في كتابه ، وهو قد بدأ فعلا
بالصلاة عليه في مطلع الكتاب
وفي آخره وبين حاشيتيه ، وغفل
عن هذا الواجب في كثير من
الفصول الاخرى ، فهو يعوّض
بهذه الكلمة ما فاته ، صلى الله
عليه وسلم دائماً وابداً .

عهد الشباب

الساعات الاولى

في الساعات الاولى من صباح يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الاول منذ الف واربعمئة وستة عشر عاماً ، وفي قرية نستطيع ان نقول ... انها كانت بمعزل بعض الشيء عن الحضارات القائمة حولها ... وإن كانت محطة تجارية خطيرة تمر فيها القوافل الآتية من اليمن ، تحمل المواد الاولية والعطور والتوابل والبخور والحرير وغيرها مما كان يصدر عن الهند والحبشة في طريقها الى غربي آسيا ، حيث تتبسط الامبراطورية البيزنطية ... في هذه القرية النائية ابصر النور طفل فقير يتيم لم يفطن لخطر ميلاده وعظيم شأنه وبعيد اثره احد من اهله ولا عشيرته .

كانت مكة بلداً تجارياً يشتري اهلُه السِلع من

اليمن والحبشة ثم يبيعونها على حسابهم في اسواق الشام ومصر ، جعلها عرب الحجاز قاعدة لتجارتهم ، ووضعوا الطريق التي تمر فيها القوافل التجارية تحت حمايتهم ، وعلى تجارة مكة كان يعتمد الروم في كثير من شؤونهم حتى فيما يترفهون به كالحرير وغيره .

في هذا الوسط التجاري ولد محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ... وكان والده قد توفي لشهرين خليا ، وكان من عادة اهل مكة ان يلتمسوا لاطفالهم الرضعاء من نساء البادية ، وارجّح ان امه لم تحتضنه اكثر من اشهر معدودات ، ثم حُمل الى البادية تتوفر حليمة السعدية على خدمته وتربيته واطعامه ، وبعد ثلاث سنوات عاد الى امه ، فما لبث غير قليل حتى توفيت وهو في السادسة من عمره ، فكفله جده عبد المطلب وكان من زعماء مكة مرموق الكلمة ، كبير الخطر ، وكان له محباً وبه مغرماً ، والصبي عليه مدلاً ، حتى لقد كان يوضع لعبد المطلب بساط في ظل الكعبة فيجلس بنوه حوله لا يجرأ واحدهم ان يجلس عليه اجلالاً واعظاماً ، فاذا جاء محمد اخذ مكانه عليه فيحاول اعمامه تأخيره عنه ، فيأبى ، فيقول عبد المطلب حين يرى ذلك منه ومنهم ...

— دعوا ابني هذا فوالله إن له لشأناً ...

وفاة عبد المطلب

وفي ذات يوم ، وبعد سنتين من وفاة آمنة ام محمد ،

اصبح عبد المطلب مريضاً مثقلا ، ألقي في روعه انه مفارق مكة فراقاً لا رجوع بعده ، فيدعو بناته ،ويطلب اليهن ان يبكينه كما يبكي الناس الموتى ... ومحمد قائم امام فراش الشيخ يرى ويسمع ، ويضطرب قلبه لما يرى ويسمع ، فتنهال من عينيه دموع ، ويضطرب في قلبه اشفاق كثير ...

لله من دموع اليتيم ما احرّها واشدها ... فتىً ما عرف اباه ولا اكتحلت عيناه بمرأى امه الا قليلا ، فاذا ما كفله جده وراح يبر به ويعطف عليه ، راح يأخذه الموت من بين يديه كأنما اراد القدر ان يظل هذا الفتى يتيما حقاً ، ما تضطرب حوله عاطفة ، ولا تزخر في وجهه ابتسامة هانئة ، وهو الى ذلك ضعيف لا يملك للاقدار رداً ، ولا يستطيع لها دفعاً ...

ويغلب على اليتيم الصغير الحزن والاسى ، فيمّضي كثيراً من يومه وبعض ليله ، يذكر فيها اباه الذي لم ير له وجهاً ، ويذكر امه التي لم تتوفر لها العناية به الا بمقدار ، ويذكر جده الذي فارقه منذ ساعات ، ثم يطلق بصره الى السماء ، يطلب منها ملجأ وحامياً ، وهو اليتيم الفريد بهم .

الطفل اليتيم

يموت الشيخ ويكفلُ اليتيمَ عمه ابو طالب ، ولم يكن من اهل اليسر والمال ، فاذا محمد يعاني مشقة في مأكله

ومشربه وحياته ...

في هذه الايام المدلهمة القاسية ، كان محمد يأوي الى جارية ابيه عبدالله ، المخلوقة الحبشية السوداء ، التي كانت تحضن الطفل وتحنو عليه ، كانت تغمره بصنوف من الحنان والمحبة ، لا يشغلها عن خدمته مرض يُلمّ بها ، ولا يمنعها عن العناية به شيء من اثقال الحياة ...

لم يبق لمحمد بعد ابويه وجده غير حاضنته هذه ، ام ايمن جارية ابيه ، التي شهدت ليلة الوضع ، والتي ما كادت ترى الطفل يمس الارض ساجداً هادئاً ، حتى القى الله حبه في قلبها ، واذا هي تذوب في الطفل حناناً ، واذا هي تغمره بصنوف من المحبة والاخلاص ، فاذا ذهب الى البادية ، أسقط في يدها وتولاها من الحزن شيء كثير ...

فاذا ما عاد الطفل الى مكة ، وتوفيت امه بعد ذلك ، خلص اليتيم الى الحاضنة ، من دون الناس ، فاذ الدنيا عندها اياه ، واذا هو كل شيء في وجودها وحياتها ، وقفت نفسها على خدمته ، وخصته بحنانها وحبها كله ، أمَة وفية كريمة ، ما عرفت معنى الحياة إلا في هذا الطفل ، ولا رأت نور الدنيا الا في عينيه ونظراته ...

ويسير الزمن سيرته ، لا تفارق الحاضنة فتاها ، ولا يشغلها شيء عنه ، حتى اذا بلغ سن الرجال واتخذ له زوجة ، اعتق اليتيم حاضنته ورد اليها حرياتها ، فتزوجت رجلًا من اهل المدينة ، فلما توفي عادت الى فتاها ، فعاشت

في كنفه ، وامنت به لما ارسله الله رسولاً ، ومحمد لها محباً ، وبها رقيقاً ، ينطلق لسانه اذا ما اقبلت نحوه بهذه الكلمة الرائعة العذبة :

— انها بقية آل بيتي ...

تلك هي ام ايمن الخادمة الحبشية السوداء حاضنة محمد ، ومربية محمد ، وسيدة من سيدات المسلمين ... وكذلك اراد ربك ان يكون محمد يتيماً ، وان يكون فقيراً ، وان يكون معدماً ، حتى اذا جاء امر الله ، وارسله الى الناس نبياً مرسلاً ، ثم مكّنه من العربية قاصيها ودانيها ، عرف قيمة اليتم ، واثر الفقر ، ومشقة العدم ، خاطبه ربه في كتابه الكريم فقال :

« فاما اليتيم فلا تقهر ، واما السائل فلا تنهر ، واما بنعمة ربك فحدث .. »

في طريق الشام

فاذا كان في التاسعة من عمره اخذه عمه معه في تجارة الى الشام ، وما كان محمد وهو في مثل هذ االسن ليتفهم اسرار الحياة او يغوص في فلسفة الديانات ، لنؤمن بما يقول به بعضهم من اجتماعه الى فلان وفلان من الرهبان ، فعلموه العقائد النصرانية ، وافهموه سرّ التوحيد والوحدة الالهية ...

ولست انكر ما قد يتوفر للفتى النابه يضرب الارض في تجارة مع جماعة من الناس ، وقد تبسط اكثرهم في

مواطن الحضارة واستقامت لهم معرفة ببعض الوان الحياة الاجتماعية القائمة في ذلك الزمن ، فيروح كل واحد منهم يقص ما شاهده وما سمعه من الوان واحداث حين يجن الليل ، وتسكن الطبيعة ويأوي رجال القافلة الى شيء من الراحة بعد عناء النهار ، ومتاعب السفر ...

×

في الصحراء

هذه قوافل مكة تجتاز الصحراء العريانة ، وتطوي البيد ، وتركب الرمال ، ومحمد منصرف الى نفسه ، غارق في احلامه .

قضت القافلة ثلاثين يوماً حتى برزت لها الارض المتحضرة الطافحة باثار الروم والغساسنة ، فلاحت عندئذ لليتيم البيع والمعابد والقصور والقباب ، وانكشفت له الارض عن الربيع الاخضر فهذا النارنج ، وهناك مغارس الآس ومواطن الاعناب ...

ومد اليتيم يده الى زهرة من هذه الازهار الباسمة العابقة قلقاً وجلًا ، فلما حاذتها انامله استأنس بها ، واستأنست به ، فلم يشأ عزوفاً عنها ، فرمى بنفسه الى جانبها وقد انهكه السفر واضناه بعد الشقة ...

واطلق ابو طالب بصره يبحث عن ابن اخيه فاذا محمد بين النارنج والآس ، واذا هو حائل اللون ، حائر الطرف ، ظاهر الرزانة ، بادي التفكير ، فتركه وشأنه ، وقد عوده هذا اليتيم مثل هذا الانقباض والابتعاد عن

الناس والخلوص بنفسه الى عزلة هانئة وادعة ، بعيداً عن الارض ومن على الارض ... وهذا ما كان يدهش ابا طالب ويثير هواجسه وتفكيره ...

فاذا عاد محمد الى مكة ، تساءل من يحاول التأريخ لحياته عن اثر هذا الاتصال بالحضارة الرومانية النصرانية في نفسه ، أأرقه واشجاه ، ان يشهد هـذه الارض الزاهية ، فيرى ملوكها واقيالها الاعاريب عبداناً لقياصرة الروم ؟ ام احزنه ان لا تستمتع الجزيرة بمثـل هذه الحضـارة النضرة التي كانت تنعم بهـا بصرى ومشارف الشام ..؟

بعد التاسعة

المؤرخون لا يتحدثون عن حياة محمد في هذه السنوات التي تقطعت بين سفره الى الشام والخامسة والعشرين من عمره ، لمـا سألته خديجة وهي امرأة غنيـة من اهل مكة ، وفي الاربعين من عمرها ان يذهب بتجارتهـا الى الشام ، فيذهب الى بصرى من اعمال الشام ، لان السلطات البيزنطية في ذلك العهد لم تكن تسمح لتجار العرب بدخول دمشق ، فاذا عاد غانماً كاسباً عرضت عليه خديجة ان يتزوجها فيفعل ...

ولكن كيف مضّى اليتيم طفولته الشديدة وايامـه الاولى ؟

هل كان له اصدقاء يخالطونه ويخالطهم ؟ ويجالسونه ويجالسهم ؟ ويأنسون اليه ويأنس اليهم ؟

هل كان ابو بكر وعمر من اصحابه في هذه الفترة ؟
هل كان يرعى الغنم قبل الخامسة والعشرين ، ام كان يشتغل بالتجارة كما كان شأن اهل مكة في هذا العهد شيوخاً وشباباً ونساءً ؟

ثم ما هذه الشوائع تملأ جو مكة عن اخلاقه وصدقه واستقامته ... مثل هذه الشوائع لا تُخلق ارتجالاً ، ولا تسير سبيلها بين الناس عفواً ، اذا لم تستبقها اعمال وفضائل ومكارم صالحات ، معروف امرها ، ملموس شأنها ، مصدقة أخبارها .

كتب السيرة لا تتولانا بجواب عن هذه الاسئلة ، ولكننا نظن ان فقر عمه قد حمل محمداً على العمل لما استوى شاباً ، واذاً فقد رعى الغنم ، وقام باعمال تجارية صغيرة ، اثبتت للناس صدقه وامانته ، فتحدث بها الناس ، وعرفت بها خديجة ، فاستأجرته لتجارتها ، وكان ما كان من زواجه بها ...

في غار حراء

من المؤكد ان محمداً بدأ بالتفكير الروحي بعد الخامسة والثلاثين ، وقبيل الاربعين اخذ يتعبد في غار حراء ، وهو جبل بالقرب من مكة ، وفي هذه الليالي المقمرة ، اخذ محمد يطيل النظر الى هذا العالم العظيم الذي كان يشعّ امامه في السماء ، هادئاً مفكراً ، حتى كان الاتصال بالله وكانت الرسالة ...

بودي لو اوفق الى تصوير هـذه الايام يقضيهـا سيد العرب في غار حراء ولكن احداً من المؤرخين لم يعرض لها ، ولا حاول تصويرها وتفسيرها ...

ولذلك لا يزال غـار حراء سراً من الاسرار ، ولا يزال تعبد الرسول فيـه لغزاً من الغاز الحياة ، ونحن اذا اطلقنـا الفكر الى هذا الجبل وحاولنا تصوير الحياة المحمدية فيه ، لا نكون بعيدين عن الحقيقة اذا ذهبنا نقول ، ان رسول الله كان يأوي الى الغار ما بين حاشيتي النهار نائمـاً حيناً ، مفكراً حيناً آخر ... وان تعبده وهجوعه وتقليب بصره في السماوات العلى انمـا كان في الليـل ، والقمر مشرق ، والهواء رطب بليل ، والسماء غارقة في انوارها وضيائها .. ومن المؤكد انه كان يغادر الغار مـا بين حاشيتي الليل متمشياً على سفح الجبـل ، موليـاً وجهه شطر السماء ، كأنما يحاول الاتصال بهـا ، والتحدث اليها ، ومـا يزال هذا شأنه ، حتى تلفح اشعة الشمس شعره المرسل على جبينه وكتفيه ...

ايّام شاقة صعبة

في مكة

يقسم تاريخ محمد بعد النبوة الى قسمين ، دعوة الى الاسلام في مكة ، دامت ثلاثة عشر سنة ، وتنظيم ، وتشريع ، ونضال ، في المدينة ، دام حتى وفاته ...

ففي مكة اوذي محمد وأهين ، ونابذه قومه وتذامروا منه ، وحضّ بعضهم بعضاً عليه ، واعرض عنه عامة الناس وتركوه ، وحاربه خاصّة القوم وعادوه ، وهذا هو القدر يعود سيرته الاولى ، فقد أصيب محمد باليتم صغيراً من اهله ، وهو اليوم يُصاب به كبيراً من قومه .

راح محمد في مكة يحمل على ما كان لقريش من نُظُم بالية عتيقة حملة عنيفة ، لا مواربة فيها ولا هوادة ... ناعياً عليهم وثنيتهم المنحطة ، ونظامهم الاجتماعي الفاسد

الذي جعلهم شيَعاً وفرّقهم الى فقراء واغنياء وسادة وعبيد ، منتقداً تفاخرهم بالاحساب والانساب ، مقبحاً طرقهم الملتوية في المعاملات داعياً اياهم الى الايمان بالله وحده ، والاحسان والعمل لخير المجموع .. فصدّقه قوم قليل ، وأعرض عنه الاكثرون ، وذهبوا ينابذونه ويضربون انصاره ، ويقاطعونهم ، حتى اجبروا بعضهم على الهجرة الى الحبشة ، ثم قرروا قتله ، فاضطر الى النجاة بمبادئه الى المدينة ...

محمد وقريش

وقفت قريش — وهم اهل مكة — اول الامر من محمد موقفاً وسطاً ، فلم تعرض له كل العرض ، ولم تتركه وشأنه كل الترك ، وانما راحت تسفه دينه ، وتحض الناس عليه ، وتعمل على ارتداد من آمن بالله ورسوله ، ولكن محمداً كان النشاط واللباقة والفصاحة وجمال الخلق مجتمعة ، فوجدت قريش انها امام رجل عنيد وقوة لا تقهر ، ورجل لا كالرجال ، وخصم ليس كغيره من الخصوم ، فهي ان لم تعاجله عاجلها ، وان لم تقض عليه قضى عليها ، فهبت تنهج في مقاومته نهجاً جديداً ، كانت اول الامر تستهزيء به وبدعوته ، وبمن تبعه ، فهو شاعر وساحر ومجنون ، وما دعوته الا خداع وغرور ، وما اتباعه الا عامة الناس ومن والاهم ، ثم راحت تحاول اعجازه ومعاياته ومكايدته ... ان يكن صادقاً فيما

يدعي ، فليحوّل جبال مكة جناناً وانهاراً ، او فليرقَ الى السماء ، او فليأت بالله والملائكة يساعدونه ويؤيدونه ، فلما اعيتهم فيه الحيل ورأوا وقوف عشيرته دونه يمنعونه ويحمونه اخذوا يعرضون عليه الملك والزعامة والشرف والجاه والمال الوفير ، فيرفض هذا كله ، ويطلب منهم ان يؤمنوا بالله لاالٰه الا هو وحده لا شريك له .

ـ ٨ ـ

وكلمت قريش عمه ابا طالب بالامر ، فبعث اليه يحاوره ويقول :

— يا ابن اخي ان قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا ، فابق على نفسك ولا تحملني من الامر ما لا اطيق ...

وحديث ابي طالب مع ابن اخيه كان فيه الكثير من الاستعطاف والتوسل ، فقد احس ابو طالب بالشر ، لما هددته قريش ان يكف ابن اخيه عنها وعن دينها وآلهتها ، او تنازله حتى يهلك احد الفريقين .. لقد عظم الامر على العم ، وخشي العاقبة ، وان تركبه دهماء العرب مع قومه ، فبعث الى محمد وقال له ما قال ...

وكان محمد في الواقع مديناً لعمه بكثير من العناية والعطف والاحسان ، فهو الذي قام على تربيته بعد وفاة جده ، وانزله منزله ، وجعله مثل ولده ، وهو الذي يحميه من عدوان اهل مكة عليه ، فمن حق محمد ان

يذكر له كل هذا ، ولكن الامر كان فوق طاقته ، كان محمد رسول ربه ، يدافع عن المثل العليا ، يدعو للتوحيد والفضيلة والعدل والاحسان ، وكل ما في الحياة من خير ونعيم ...

كان محمد في موقف حرج ما في ذلك شك ولا ريب ، كان امام واجبه نحو ربه ، وامام واجبه نحو عمه ... وعمه وعائلة عمه وكل شخص من بني هاشم ، كانوا جميعهم تحت رحمة القدر ورحمة قريش ، ومن وراء قريش دهماء العرب تطلب فرصة للانقضاض عليه وعلى اهله ، ولكن ايمانه بالله كان فوق حياته ، وحياة اهله ، واقرب المقربين اليه .

قال لعمه : « يا عمي .. والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه ما تركته » ...

ويحس محمد بشدة الجواب وقوته ، ويظهر عليه التأثر ، وتترقرق دموعه على وجنتيه ، فيترك عمه مكانه ، ويمضي في سبيله ... فيناديه هذا :

— اقبل يا ابن اخي ..

فيقبل محمد فيقول له ابو طالب ..

— اذهب يا ابن اخي فقل ما احببت ، فوالله لا اسلمك لشيء تكرهه ابداً ..

وافضى ابو طالب الى بني هاشم وبني المطلب بجواب ابن اخيه ، وطلب منهم ان يمنعوا محمداً من قريش ،

فاستجابوا له جميعاً الا عمه ابو لهب فانه صارحهم العداوة ، وانضم الى خصومهم عليهم ...

اشتداد الاذى

غضبت قريش لعناد محمد وحماية اهله له ، فاجمعت كلمة رجالاتها على حجز محمد وعشيرته من بني هاشم والمطلب في بعض شعاب مكة ، وقطعوا كل اسباب الاتصال بينهم وبين جمهور الناس ، فقضى بنو هاشم والمطلب نحو ثلاث سنين في ضيق شديد ، حتى لقد كان يسمع صوت صغارهم من وراء الجبل وهم يتضورون جوعاً ، وحتى قام من قريش من حركتهم عاطفة الرحم والقرابة فسعوا الى اخراجهم من مضيقهم فأخرجوا .

لم ينعم محمد بهذه الحرية طويلا ، ففي السنة العاشرة للنبوة مات عمه ابو طالب وزوجه خديجه ، فخلا الميدان من النصير الزائد ، وخلا البيت من الحبيب المؤنس ، واصبح محمد وجهاً لوجه امام عدو قوي حنق عليه ، كان يترقب فيه الفرصة ، فلما حانت اغرى به السفهاء يتعمدونه بالاذى والعدوان .

سر في الطائف

فكر محمد في الخروج الى الطائف لعل ثقيفاً وهم اهلها واصحابها ، تجيره من اهل مكة حتى يبلغ رسالته ، فمشى اليها يسعى عند هذا ، ويتلطف لذاك ، وكلهم يرده ،

وكلهم يمتنع عنه ، ثم اغروا به سفلتهم ، فبدأوا يؤذونه بالقول والفعل ، حتى ألجأوه ضعيفاً مكدوداً ، وكئيباً محزوناً ، الى بستان في اطراف الطائف ، وقد ظهرت على وجهه الكريم آيات الحزن ، وآيات الرجاء ، وآيات الضعف ، وآيات القوة ، ضعف مصدره العناء ، وقوة مصدرها العزم والحزم ، وحزن مصدره الرحمة لهؤلاء الذين يدعوهم الى الخير فيبغونه بالسوء ، ويرشدهم الى العزة فيريدونه بالمكروه ...

اغرت ثقيف سفهاءها بمحمد ومولاه زيد بن حارثة ، فاخذوا يرمونه بالحجارة ، ويتوعدونه بالاذى ، وما زالوا يتعقبونه حتى الجأوه ومولاه ، الى بستان خارج المدينة ، وهنا وقد خلا محمد الى نفسه ، فاضت اشجانه ، واعتلجت في صدره همومه ، وذكر يتمه وضعفه ، وقلة حوله فانبعث يناجي ربه ويقول :

« اللهم اليك اشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا ارحم الراحمين انت رب المستضعفين ، وانت ربي ، الى من تكلني ؟ الى بعيد يتجهمني ؟ الى عدو ملكته امري ؟ ان لم يكن بك عليّ غضب فلا ابالي ، اعوذ بنور وجهك الذي اشرقت له الظلمات ، وصلح عليه امر الدنيا والآخرة ، من ان تنزل بي غضبك او تحل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك ... »

الى المدينة

ويعود محمد الى مكة فيجد قريشاً تفكر في قتله ، وإطفاء نور النبوة ، فيرى من الحكمة مغادرتها الى المدينة حيث كان انصاره بانتظاره ، وحيث كان اكثر المهاجرين من مسلمي مكة قد سبقوه ...

في سبيل الوحدة العربية

موقف دقيق

نحن في المدينة ، وقد هاجر اليها محمد والمسلمون ، وهنا ينتقل تاريخ محمد والاسلام الى دور جديد ، لعل اهم مظاهره توحيد الصفوف ، فالاسلام دين التوحيد ، التوحيد الديني والتوحيد السياسي ، محمد يوحد بين المهاجرين واهل المدينة من المسلمين وهم الانصار ، ويوحد بين الانصار انفسهم لانهم كانوا على اختلاف فيما بينهم ، وهناك في المدينة اليهود ، وهؤلاء إمّا ان يسير محمد معهم ويؤمن بشريعتهم او يحاربونه ، واذاً فقد كان على محمد ان يحارب خصومه في مكة ، وان يحذر خصومه في المدينة ، وقد حاول وهو في المدينة ان يتقرب الى اليهود ، وكانوا جماعة كبيرة فيها ، فلم يوفق ، فاضطر الى حربهم او ابعادهم جماعة بعد جماعة ، حتى لم يبق في المدينة منهم

احد ...

ولكن موقفه مع اهل مكة كان شيئاً آخرَ ، كان يعلم انه لن يوفق الى توحيد القبائل العربية في دولة واحدة اذا لم يقض على خصومه في مكة ، فقد كان العرب لا تخرج عن رأيهم ، فاذا لانوا لانت العرب ، واذا حاربوا حاربت العرب ، ولما كان اهل مكة تجاراً بكل ما في الكلمة من معنى ، فقد راح يحاربهم بتجارتهم ، قرر مبدأ الحصار ، وامر اصحابه ان يمنعوا وصول القوافل الى مكة ، والقوافل والتجارة حياتها ، فكان من ذلك معركة بدر ، وهي من اعظم معارك التاريخ اثراً ومصاير .

خروج المسلمين

ففي الساعات الاولى من صباح يوم الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة ، خرج من المدينة ثلاثمائة واربعة عشر رجلاً من المسلمين بقيادة محمد بن عبدالله ، للاستيلاء على عير قريش التي كانت تحمل تجارتها من الشام الى مكة ، والتي قدرها بعض المؤرخين بخمسين الف دينار ... يحملها الف جمل على الارجح ...

وكانت قريش جماعة معادية لرسول الله وأنصاره ، آذت المسلمين واخرجتهم من ديارهم وصادرت اموالهم ، وما تركوه في مكة بعد هجرتهم الى المدينة من مال ومتاع ، وكان رسول الله يعلم ان اقتياد قريش

واخضاعها للاسلام ضروري لذيوع الدعوة في الجزيرة ، لأن قريشاً قلب العرب ومرمى انظارهم ، والناس لهم تبع ، فمتى استقاموا وانقادوا استقامت العرب وانقادت ، لذلك فقد ضرب الرسول نوعاً من الحصار الاقتصادي على قريش وأخذ يصادر تجارتها التي تذهب الى الشام وتأتي منها ، استرداداً لاموال المسلمين التي اخذتها كرهاً ، وراح يرسل السرية أثر السرية تعترض عير قريش وتجارتها ، انعاشاً للمسلمين ، وتشجيعاً لهم ، وتمريناً لهم على القتال ، وارهاباً لعدوهم ، حتى يؤمن بقوتهم وجلدهم ، ولكن المسلمين لم يوفقوا في هذه السرايا ، ولم يلاقوا كيداً حتى كانت معركة بدر الكبرى .

فلما علم رسول الله بخبر القافلة القادمة من الشام ، وما تحمله من المال والامتعة والانسجة ندب المسلمين اليها ، فخف بعضهم وتثاقل آخرون ، ظناً منهم ان الرسول غير ملاق كيداً ولا حرباً ، فكان عدد الذين خرجوا والحالة هذه لا يزيدون عن ثلاثمائة مقاتل إلا قليلاً .

ابو سفيان يحذر

وكان ابو سفيان لما دنا من الحجاز ، يسير محترساً ، وقد بث العيون امامه ، فأخبر — وهو سائر — ان محمداً قد استنفر اصحابه لقتاله ، فحذر واستأجر رجلا يذهب الى مكة فيطرح الخبر ، فاضطربت قريش على اموالها ، ونفرت على الصعب والذلول ، فمن استطاع الخروج

بنفسه منها خرج ، ومن لم يستطع استأجر مكانه شخصاً ، وكان عددهم بين التسعماية والالف ولم يزالو في سيرهم الملتهب حتى نزلوا بالعدوة القصوى من وادي بدر ، وهو الى الجنوب الشرقي من الحجاز

واما ابو سفيان ومن معه من اهل القافلة ، فانهم بعد ان بعثوا بالخبر الى مكة تنكبوا الطريق المعروف ، واخذوا يجدون بالسير حتى امنوا على انفسهم واموالهم ، فبعثوا الى قريش بنجاتهم ودعوهم الى الرجوع لمكة ، فاختلف القوم ، ثم اتفقوا على مقاتلة المسلمين ، ومتى استئصلوهم اقاموا في بدر ينحرون الجزر ثلاثة ايام ، ويطعمون الطعام ، ويشربون الخمرة وتعزف لهم القيان ، فلا تزال العرب تهابهم ابد الدهر ..

وتملكت قريش الخيلاء ، وقد خرجوا على الخيل وعليها الدروع والحديد ، وهم اضعاف اضعاف رجال محمد ، فظنوا انهم الغالبون وان هذا اليوم يومهم ، وكان اصحاب رسول الله من الفاقة والضعف في اسوأ حال ، كان معهم فرس واحد ، وقيل اثنان ، وكان مع الثلاثة او الاربعة البعير الواحد ، يعتقبونه الواحد بعد الاخر .

التنظيم

وتراءى الجيشان في صبيحة اليوم السابع عشر من رمضان ، ووقف كل واحد قبالة الاخر استعداداً للمعركة الفاصلة ...

وكان الفن العسكري عند العرب لا يزال في طفولته ، وكانوا لا يقاتلون بعضهم بعضاً بالجموع من الجيوش ولا بالعدد الكبير من الجند ، كما كان يفعل الفرس والروم ، وانما كانوا يحاربون بالعشرات والمئات ، ومن المفروض في هذه الحالة ان تكون المعركة عبارة عن غزوة بسيطة ، وان يكون عدد الضحايا قليلا جداً ..

ومعركة بدر كانت صورة صادقة لهذه المعارك التي كانت تقع بين القبائل العربية في الجاهلية ، ولا نبالغ اذا قلنا إنها كانت صورة مكبرة ، لانه لم يكن يجتمع دائماً مثل هذا العدد من المقاتلة في ايام العرب قبل الاسلام .

وكان من الصعب على المسلمين ان ينسحبوا ولو كان عدوهم يزيدهم اضعافاً مضاعفة ، لان في ذلك اضعافاً للاسلام نفسه ، وتشجيعاً للمنافقين على الشغب ، وقضاء على الروح المعنوية التي كان ينعم بها المسلمون العرب .

ولذلك رأى رسول الله ان يقاتل قريشاً بقوته الضعيفة معوضاً عن هذا الضعف بتنظيم عسكري تعبوي جديد ، فاختار موضعاً يسيطر على معسكر قريش ، وقسم قوته الى ثلاثة اقسام ، وجعل لكل قسم قائداً ورتب الاقسام بعضها الى جانب البعض الاخر ، وعبأها صفوفاً قوية ، وعرض الصفوف بنفسه ، فقدم المتأخر من الجنود وأخر المتقدم ، فاصبحت الصفوف متراصة مستقيمة ، وحظر

على المسلمين رمي السهام والتفاخر ، وفرض عليهم البقاء في اماكنهم ، وان لا يرموا حتى تدنو قريش منهم ، وتصبح على مسافة قريبة ، وغرضه من ذلك ان تنصبّ السهام دفعة واحدة على قريش ، فتصيب اكبر عدد ممكن منهم .

وكان هذا الجيش المتراص بعضه الى بعض ، اشبه بصفوف المصلين في المسجد ، حتى ذهب بعض المستشرقين الى القول بان الصلاة في الواقع ليست إلا عبارة عن تدريب عسكري .

المعركة

وبدأت المعركة بالمبارزة الفردية كما هي عادة العرب ، فنزل ثلاثة من جنود العدو الى الساحة ، وطلبوا ثلاثة من المسلمين مثلهم شرفاً وحسباً ومقاماً ، حتى لقد طلب المبارزون من قريش معرفة اسماء خصومهم قبل ان يبدأوهم القتال ليعرفوا أهم مثلهم شرفاً ومحتداً ... !

ثم بدأ الهجوم ، فمشت جماعة محمد وهي الجماعة المستضعفة ، القليلة العدد ، الضعيفة العدة ، الجائعة الهزيلة ، المضطربة الجسم من شظف العيش وقلة المأكل ، القوية الايمان ، الشديدة الحماس ، الى خصومها ، وهي تعلم انها ان هلكت ، هلك معها دين الله ، وان فشلت ، اقتحمت قريش المدينة ، فقتلت الرجال وسبت الاولاد والنساء والذراري ، واستأصلت الشيوخ ، فكيف تريدها والحالة هذه ان لا تدافع عن دين تعلم انه الحق من ربها ،

وكيف تريدها ان لا تمعن في الاستبسال وهي تعلم ما يحيق بذراريها ونسائها من بعدها .

النصر

جماعة هذا شأنها ، وهذا اخلاصها لمبدأها ، وايمانها بضرورة هذه الوحدة العربية التي راح يدعو اليها محمد بن عبدالله ، لاتذهل إن رأيتها وقد ملك عليها الدفاع عن عقيدتها وكيانها كل حواسها ، ولا يذهب بك العجب اذا رأيتها قد وفقت في حربها ، وهزمت عدواً اكثر منها عدداً وسلاحاً ، فالنصر للقوة المعنوية دائماً وابداً ، لا للجيش الضخم والعدد الكبير .

وكذلك انجلت هذه المعركة الاولى في سبيل الوحدة العربية ، عن هزيمة قريش واندحارها ، فتمت الغلبة للمسلمين ، وكان ذلك اول نصر في الاسلام .

ولعل من اروع فصول هذه المعركة هذا الحوار الذي كان يدور بين محمد وربه ، ثم بين محمد وابي بكر ... وذلك قبيل المعركة ... فقد وقف رسول الله يدعو ربه خاشعاً متواضعاً ماداً يديه ، مستقبل القبلة ، حتى سقط رداءه عن منكبه ، فاخذه ابو بكر ورده الى مكانه ، ثم اعتزمه من ورائه وقال :

— يا نبي الله كفاك تناشد ربك ، فانه سينجز لك ما وعدك ...

ما اعظم ايمان ابي بكر ، اني لاذكر ما قاله

نولدكه المستشرق الشهير عن الخليفة الاول « كان في ايمانه بالله ورسالة محمد كالجبل لا يتحرك ولا يميل » وكذلك كان ابو بكر، كان كالجبل ايماناً بالله ومحمد... فهل يعود المسلمون الى هذا الايمان، الذي فقدوه، انهم ان فعلوا ذلك تصدروا الوجود، وحكموا ما بين المشرق والمغرب.

احدث انتصار محمد على اهل مكة دويا عظيما في الجزيرة، فقد استشعر الناس ان هناك حدثاً جديداً، وان هناك قرية صغيرة في الشمال، قد اخذت تمشي الى حيث تأخذ مكانها في صدر الوجود.

المعارك الاخرى

ليس لمعركة « أُحُد » من شأن في نظري، وهي المعركة التي تلت بدراً، وفشل فيها المسلمون، لان هذا الفشل لم يؤثر في كثير ولا قليل على المسلمين والاسلام، ولكنه حفزهم للبحث عن انتصارات جديدة نالوها في السنوات التالية. ومردّ الفشل الذي اصاب المسلمين في أُحُد ان رماتهم تركوا مراكزهم بعد الدورة الاولى من المعركة لينال كل منهم حظه من الغنيمة، فقام خالد بن الوليد بحركة تطويقية وجاءهم من خلفهم فارتدوا خاسرين، وكذلك القول في معركة الخندق، فهي معركة عادية ليس فيها من جديد، إلا هذه البطولة التي اظهرها المسلمون اثناء الحصار، فارتدت قريش ومن شايعها ينعمون بالفشل المريع

والخذلان المبين . وكان من اثر هذا كله ان اخذت القبائل الضاربة في الصحراء تحسب الف حساب لشوكة المسلمين ، فاقبل على الاسلام منهم من اقبل ، وتردد منهم من تردد .

اما فتح مكة فكان فتح الفتوح ، كانت مكة معقل الوثنية ، ومركز المعارضة الحقيقية ، وباقتحام محمد لها في السنة العاشرة للهجرة ، انهارت الوثنية وتمزقت المعارضة ، فلم تبق إلا الطائف ، وهذه استسلمت بعد قليل وعندئذ اخذ العرب يقبلون على الاسلام افواجاً افواجاً ، فتم لمحمد النصر على الجزيرة كلها ، وتم له ما اراده من توحيد القبائل العربية تحت سلطان واحد ودولة واحدة ، وترويضهم على الطاعة والتضحية في سبيل المثل العليا وضخام الاعمال .

الحنين إلى الوطن

محمد كما اراه

هذه قصة متواضعة لهذا العراك المؤثر، بين محمد الفقير اليتيم وبين أمة بأسرها ... ما يعرف التاريخ مثله تضحية وجرأة، وحباً للحرية، وكرهاً للقيود والاستعباد، وسعياً لكل ما من شأنه اسعاد المرء واسعاد الجماعة في نظام قوامه اشتراكية بعيدة عن التطرف، وديموقراطية قوامها العدل والانصاف والتعفف، ليس فيها كبير وحقير، وغني وفقير ... الناس فيها سواء في الحقوق والواجبات، فاعجب بعد هذا لاعجوبة الدهر وعبقرية الفرد ...

لست اعرف في التاريخ رجلا مثل محمد بن عبدالله، كان شديد العاطفة قوي الحساسية سريع العبرة، وهو في الوقت نفسه من اشد الناس قوة وايماناً وجرأة وبسالة،

دفاعاً عن دينه وعقيدته ... يموت حمزة عمه في معركة أحُد ، وتبقر هند زوجة ابي سفيان بطنه ، وتلوك قلبه باسنانها ، فاذا وقف محمد حيال الجثة ورأى هذا التمثيل الفظيع بكى وبكى المسلمون .

عبرات

وكذلك نراه بعد مدة يزور قبر امه ، فيجلس الى القبر حزيناً باكياً ، فاذا شاهده المسلمون اجهشوا بالبكاء وفاضت قلوبهم حسرة على اليتيم الحزين .

فاذا كان فتح مكة ودخلها ظافراً فاتحاً مشى الى قبر ، يقال انه لجده او عمه ، فعطف عليه ووقف امامه ، ثم انصرف حزيناً باكياً .

وما كان بكاؤه وحزنه إلا ان اهله ماتوا قبل ان يفطنوا لعذوبة الاسلام ، ويتقبلوا هذا الدين المتواضع ، ويشاهدوا هذا الفتى الذي حفظوه ، وقد ادى الامانة ، وقام بالرسالة ، فخلق أُمة ، وانشأ شعباً ...

وفاة ابراهيم

ولست اعرف موقفاً يدعو الى الاسى والحزن يساوق الموقف الذي وقفه رسول الله لما احتضر ابنه ابراهيم ، واخذه رسول الله في حجره ، ونظر اليه برهة ثم قال يخاطبه :

— يا ابراهيم انا لن نغني عنك من الله شيئاً ...

وذرفت عينا رسول الله ، والصحابة ينظرون اليه ، وقد اضطربت افئدتهم ، وجاشت عواطفهم ، فما يستطيع احد منهم كلاماً ، ولا همساً ... والفتى يضطرب في حجر رسول الله ، ومحمد الذي كان يحنو على الطفل ويحبه حباً عظيما ، لا يرفع عينيه عن فتاه الصغير وهو في حالة الاحتضار والنزع ، مكافحاً عواطفه ما استطاع حتى لا تترقرق العبرات ، ويجيش ما في الصدر ، ولكن ذلك كان فوق طاقة انسان ينظر الى ابنه يذهب لمآبه وهو في حجره ، فذرفت عيناه وبكى وقال :

— انا بك يا ابراهيم لمحزونون ، تبكي العين ، ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب ...

يعود بنا الفكر الى سنة واشهر خلت يوم ولد ابراهيم ، ويوم سماه رسول الله ابراهيم تيمناً باسم الخليل ، ويوم كان يذهب رسول الله الى مرضعته ، فيؤتى له بابنه ، فيضمه الى صدره ويقبله ، ويقول ما شاء الله ان يقول ، فلما مات ابراهيم بكى رسول الله ، وبكى المسلمون ومن حق محمد ان يبكي ، وقد كان يحب الطفل حباً جماً ، ثم كان يريد ان يكون له طفلاً ، وما نهى رسول الله عن البكاء على الميت ، وانما نهى عن النواح والصراخ ، ولما دفن ابراهيم امر رسول الله برش قبره بالقليل من الماء ، واشار اليه بعلامة ، ثم قال يخاطبه :

— « يا بني قل الله ربي ، والاسلام ديني ، ورسول الله ابي ... »

وكسفت الشمس في ذلك اليوم فقال قائل من المسلمين .

– لقد كسفت لموت ابراهيم ..

فلما سمع رسول الله بذلك خرج الى الناس منكراً هـذا القول في حديث صحيح ...

« ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت احـد ولا لحياة احـد ، فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى المساجد .. »

ملاعب الطفولة

واني لاذكر فيما اذكره من تاريخ رسول الله ، ذلك اليوم الذي استحوذ فيه على محمد حب الوطن وحب الملاعب الاولى .

ففي ذات يوم ، وبعـد ان آب رسول الله الى يثرب بعد ظفره باليهودية في خيبر ، احس بدافع قوي ينزع به الى المضي نحو مكة ، حيث ولد ، وحيث نشأ ، وحيث الارض التي لعب فوقها ، والبيت الذي كان ينام فيه ...

كان الدافع قوياً لا يرد ، ولكنه تَمكّث في يثرب عـدة اشهر ، حتى لم يستطع الى ذلك صبراً ، فلما توافي اليوم الثالث من شهر اذار سنة تسع وعشرين وستماية للميلاد ، افضى رسول الله الى اصحابه بالتأهب ، للمضي نحو مكة ، ونذر ليحجن البيت ويطوفن حوله ، ثم يمشي بعد ذلك الى حيث ابصر النور ، وادرك معنى الحياة ، والى

حيث كان يلعب ويفكر وينام ، فيتعرف بيت ابويه ، ويزور منزل خديجة ، وينزل مآلف الطفولة ومراتع الحداثة ، يجدد فيها ذكرى هذه الايام البريئة العذبة ، التي تمضت من عمره ، وتقطعت من شبابه ...

وكان الرسول لسنتين خلتا قبل هذا ، قد تعاهد مع قريش عهداً يبيح له مثل هذا الحج ويبرره ، فلما مشى ، مشى معه جمع ضخم من اصحابه وانصاره ، فيهم السلاح والجنود والجمال ، كانوا الفين غير النساء والصبيان ، ومثل هذا العدد من الجماعة يمشون في صعيد واحد ، كان شيئاً ضخماً في الجزيرة ذلك العهد ، فلما سمع اهل مكة بقدومه هالهم امره ، وراحوا يتساءلون ماذا عسى ان يحدث ، وما يريد محمد منا ... وفيم جاء محمد الى مكة ..؟ وقريش لم تحدث حدثاً بعد صلح الحديبية ، ثم ما لبثوا ان اتفق رأيهم على ان لا يعرضوا له في طريقه ، وان لا يردوه عن حجه ...

فلما اشرف على مكة ، واشرف على الارض التي عرفها صبياً وشاباً وكهلاً ، تفجّرت في صدره ، ذكريات جمعت بين الالم والجمال معاً ، تذكر يتمه وفاقته ، ثم زواجه بخديجة وسعادته العائلية ، ثم قيامه بدعوته ، وما لاقاه من اذى قومه واضطهادهم ، ثم تتابعت هذه الصور امام عينيه ، وتتالت في خاطره ، وغمرت كل تفكيره وشعوره ، فاذا هو يعود بالفكر الى ايامه الاولى ، يوم توفيت امه ، قبل ان يتعرف الى صورتها ، وقبل ان يستمتع بها

استمتاع الفتى المحب ، بالام الرحيم الكريم ، واذا كان الله قد منعه هذه الصورة البارعة ، فلا اقل من ان ينزل البيت الذي ابصر فيه النور ، يجوس جدرانه وارضه ، ويجلس في حجرته التي نشأ فيها وربي فيها ، لعله يعود بالخيال الى أيام رقيقة ندية باعراف الطفولة ، شجية بما تحمله في جنباتها من قصة اليتيم النبي ...

وكذلك يفيء هذا اليتيم المغترب ، بعد سنوات تقضت ، واعوام تقطعت في سبيل الله ، والمثل الانسانية العليا ، هادياً تارة ، مشترعاً اخرى ، محارباً طوراً ، مدافعاً حيناً ، الى منازل عبد المطلب ، فيذكر مجلسه عند جده ، حين كان يمشي اليه وهو في ربيعه السابع فلا يروقه الا ان يجلس في صدره ، وفي مكان عبد المطلب نفسه ، وما كان هذا تكلفاً منه لما هو فوق طوقه ، ولكنه كان ايذاناً لامته لتقتدي به وتأخذ مكانها في صدر الوجود مثله دائماً وابداً ...

وكذلك يعود محمد الى بلده قوياً بعد ان هجره ضعيفاً ، وقد مشت من خلفه ومن قُدامه عصبة ربطت مصايرها بمصايره ، واقسمت لتدافعن عنه ، ولتحاربن في سبيله ، حتى يقضي الله امره ، فلما اشرف على اطراف مكة ، اخذته انظار جماعة من اهلها عرفوه في صغره ، فعرفوا فيه الفتى اليتيم ، والشاب الامين ، والزوج المخلص والنبي المجاهد ، وروعهم ان في عينيه ذلك البريق الذي عرفوه في عيني الطفل اول معرفتهم به ، وان في وجه

ذلك الطابع الروحاني الذي يفيض جمالاً ورقة وعذوبه وقوة وسراً ، ولكنهم ذهلوا حين ابصروه يمشي في مثل هذه الحاشية الضخمة التي لم يكن مثلها لاكبر زعيم من زعماء الجزيرة ، وقد كان عهدهم به طريداً يطارده قومه ، ويتدافعون لقتله ، ويتفننون في تعذيب اصحابه ، فكيف تبدل في مثل هذا الوقت القصير الى مثل هذا الشأن العظيم ، بحيث راح يساوق قيصراً في امجاده وسلطانه ، وكسرى في اعتزازه وعنفوانه ...

وقد غاب عنهم انها النبوة ، وان النبوة شيء عظيم ...

وفاة محمد

لقد اذنت شمس الرسول بالمغيب ، فقد ادى رسالة ربه ، ووحد العرب ، واكمل الله الدين ، فهو تعب بعد هذا العناء ، ضعيف بعد هذه المشاق ، يأوى الى فراشه وقد اخذته الحمى ، فهلعت قلوب المسلمين ...

هذه يثرب ، مدينة الرسول ، قد نزل بها هول غير منتظر ، اصبحت تشهد رسول الله يمشي الى صلاة الصبح فيكاد المسلمون يفتتنون بصلاتهم فرحاً برؤياه ، واطمئناناً الى شفائه ، وقد غلب على ظنهم ان رسول الله قد أفاق من وجعه ، وما هي الا ايام حتى يعود الى مجالستهم ومخالطتهم ، فما يمسي عليهم مساء اليوم نفسه حتى يمزق الجو البكاء ، واذا الناس يغلبهم الانكار فلا يصدقون ، وترتجف بهم الاقدم فلا يتقدمون ولا يتحركون ، وتضطرب

منهم القلوب وتنبعث الاهـات من النفوس ، واذا هم يبكون فلا يكاد واحدهم يفيق من بكائه .

هذا رسول الله قد ثقل عليه المرض ، وفتحت له ابواب السماء ، واقبلت عليه الملائكة افواجاً تحمل اليه روح الله ورحمته ، وتبشره بجوار ربه ، فتصعد روحه الكريمة الطاهرة الى الملأ الاعلى ، والى جوار الله جل جلاله ، وعزت قدرته .

وتبكي فاطمة بنت محمد ، وقد فقدت الزائد الرؤوف والوالد الحنون .

ويشهق المسلمون وقد فارقهم الرسول الكريم والنبي العظيم .

فاما عمر بن الخطاب فخُبل ، واما عثمان فأخرس ، واما علي فأقعد .

واذا عمر بن الخطاب يهدد ويتوعد وهو يقول :

— ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي ، وانه والله ما مات ، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران .

ويقبل ابو بكر في هـذه الفترة وعمر يكلم الناس ويتوعدهم ، فيدخل على رسول الله وهو مسجى ، فيكشف عن وجهه ويقبله ، ثم يخرج الى الناس فيقول :

— ايها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يبعد الله فان الله حي لا يموت ، ثم يتلو الاية :

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ،

أفان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين »

ولو ان الصاعقة انقضت في تلك الساعة بين المسلمين ، فمزقت منهم الاشلاء واسالت الدماء ، لما كان وقعها اشد من وقع هذه الاية على المسلمين وعلى عمر بن الخطاب ، فقد سقط الفاروق الى الارض لا تحمله رجلاه ، وقد علم ان رسول الله قد مات حقاً .

هذا محمد مسجى في بيته ، وابناؤه المسلمون يدخلون عليه افواجاً يصلون ، والقلوب واجمة ، والدموع تضطرب في المحاجر ، واليأس شديد عظيم .

ويوارى محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم في المكان الذي قبض فيه ، وبانتقاله الى الرفيق الاعلى ، انقطع الوحي ، ولكن رسول الله ترك للمسلمين من بعده كتاب الله وسنته ، ان ساروا عليهما اهتدوا ، وغلبوا الارض من اقصاها الى اقصاها ، وان ضلوا فان الارض لله ، يورثها من يشاء من عباده .

خُلقُ الأنبياءِ

البطل

كان محمد من اكبر الابطال ، ولا اعني بالبطولة انه كان محارباً بارعاً ، وفارساً ماهراً ، في الحرب وحومات الوغى ، فما كان محمد من الذين يعنون بالاشتراك في القتال بسيف او رمح ، ولا كان يقود الغزوة شاهراً سيفه واصحابه من خلفه ، واشتراكه في المعارك كان قليلا نادراً ، ولكن بطولة محمد هي في حياته ، وما تحمّله من المتاعب والنصب والعنت ، في سبيل نشر الدعوة ، وقول لا اله الا الله ...

لقد جاء محمد قومه بدين يهدم كل ما قامت عليه الحياة العربية من عقائد وتقاليد واراء ، وكان ينقض حتى ما امن به قومه واهله ، وما كان يقوم عليه شرفهم وغنائهم ومكانتهم في الجزيرة العربية ، فكان من المفروض

والحالة هذه ان يحاربه قومه ، وكان من المنتظر ، ان لا يؤيده اهله ، فلا عجب بعد هذا ، ان لا يوفق ولا ينجح ، وان يلقى من العنت والعذاب والاذى والمطاردة والاضطهاد ، ما لا يطيقه احد من البشر ، ومع ذلك فما لان محمد ، ولا استخذى ، وهو الفريد الوحيد بين قومه ، ومن حولهم العرب كلهم يؤيدونهم عليه ، ويشجعونهم على قتله وسحق دعوته ...

لقد قرأنا في تاريخه وسيرته كيف حجزه قومه مع اهله من بني هاشم في ذلك المكان الضيق الذي اسماه التاريخ (الشعب) ثلاث سنين ، وكيف صبر كل هذه المدة على عقيدته ، لا يستبدلها بملك الدنيا ، وهو يشاهد اهله وانصاره يتعذبون في سبيله ، ويطاردون بسببه ، ويهاجرون الى الحبشة هرباً من اذى قريش وكيدها ، حتى اذا اخرجه قومه من (الشعب) ذهب الى الطائف مع غلامه يدعو اهلها الى الايمان به ، وبدعوته ، فكان نصيبه منهم ان اهانه كبّارهم ، ورماه بالحجارة صغارهم ، فعاد الى مكة فاشلا لا يائساً ، ورجع الى شأنه من بث الدعوة ونشرها ، وكأن شيئاً لم يكن ... وظل على حاله هذا ثلاثة عشر عاماً ، حتى اراد الله له الهجرة الى يثرب ، فلم يذهب اليها الا بعد ان مهد لاصحابه كلهم بالخروج قبله ..

امبركي يصف الرسول

وقد كتب (واشنطون ايرفينغ) وهو اميركي كان

سفيراً لدولته في اسبانيا اواخر القرن التاسع عشر كتاباً عن سيرة محمد قال فيه وهو يبحث البواعث التي حملته على دعوته :

« اكانت الثروة ؟ لقد افاده زواجه من خديجة الغنى ، فظل سنوات قبل الوحي لا يبدي رغبة في زيادة ثروته ، أم كان يطلب المنازل الملحوظة ؟ لقد كانت منزلته عالية في قومه وكان معروفاً بينهم بالفضل والامانة ، وكان من قريش ومن اكرم فرع فيها ، وكانت سدانة الكعبة وما تفيده من العز والسلطان في اسرته منذ اجيال ، وكان من حقه ان يتطلع اليها ، فلما قام يحاول ان يهدم الدين الذي نشأ عليه قومه اقتلع جذور هذه المزايا جميعاً ، فقد كانت ثروة اهله ومنزلتهم قائمين على هذا الدين، فهاجمه وجر على نفسه عداوة اهله ، وغضب مواطنيه وسخطهم جميعاً .

« هل كان هناك في بداية سيرته النبوية ما يبعث الامل او يعوض هذه التضحيات ؟ ان الامر كان على النقيض ، فقد بدأ محاذراً متوخياً الكتمان وظل سنوات لا يوفق ، وعلى قدر توسعه في بث دعوته ، واذاعة رسالته ، كان يشتد ويعظم ما يلقى من العنت والسخرية والاذى والاضطهاد ، واضطر بعض اهله وانصاره ان يفروا الى بلاد اخرى ، واحتاج هو نفسه آخر الامر ان يهاجر الى بلد غير مكة ، فلماذا كان يصر كل هذه السنوات الطويلات على « دجل » يسلبه كل متاع الدنيا في

سن لا تسمح بان يبدأ المرء حياته مرة اخرى ؟

« فما قام بالدعوة الا بعد الاربعين ، وقضى في مكة ثلاثة عشر عاماً ، وكان تاجراً حسن الحال فهاجر منها فقيراً معدماً ، لا يعرف ما كتب الله له في غيبه من النصر ، ولا ينبغي اكثر من ان يبني مسجداً يعبد فيه ربه ، ولا يرجو الا ان يعبد الله في سلام . ولما جاءه النصر لم يتكبر ، ولم يتجبر ، ولم يغتر ، محافظاً وهو في أوج قوته ، على بساطته ايام ضعفه ...

« وجاءه نصر الله بعد الهجرة ، ولكن الايام لم تجر كلها على صعيد واحد ، واذا كان قد انتصر كثيراً فقد انهزم احياناً ، فلا النصر ابطره ، ولا الهزيمة اضعفت روحه او فتت في عضده .

لولا محمد

« وكان عليه ان يضع للجماعة الاسلامية في المدينة النواميس والنظم في السلم والحرب . وهو فيما أعلم الوحيد الذي بلّغ الرسالة كلها ، واتم عمله أجمعه في حياته ، فأكمل الدين ، وأسس الدولة ، ووضع القواعد كلها ، ووجه الامة الجديدة الوجهة التي فيها الخير والصلاح والعز . وليس لهذا مثيل في التاريخ — قديمه وحديثه — وهنا ينبغي ان نذكر ان مسافة الزمن التي تم فيها كل هذا كانت قصيرة جداً ، وان دينه كان جديداً ، يخالف كل ما وجد عليه العرب . وفي هذه المدة الوجيزة لم يغير للعرب

عباداتهم وحدها ، بل غير نفوسهم ايضاً ، ولا شك ان صرف امرىء عن عبادة حجر او نحوه أهون جداً من صب النفس في قالب جديد . وقد خلق من هؤلاء العرب المتنافرين المتعادين المتهالكين رجالا يعدون في طليعة ابطال العالم ، وماذا كان هؤلاء جميعاً خليقين ان يكونوا لولا محمد؟ ونعني بهم ابطال التاريخ الاسلامي من مثل الخلفاء والولاة والقواد والفقهاء ... أكان احد يمكن ان يسمع بهم ؟؟

وليس من شك انهم كانوا خلقاء ان يكونوا شيئاً مذكوراً بين قومهم ، ولكن قومهم اجمعين لم يكونوا شيئاً . وما قيمة قوم انقسموا قبائل متعادية لا أثر لها في الحياة ، ولا يعبأ بها حتى من يجاورها من الامم ؟ ومن هذه العناصر خلق محمد أمة عظيمة فتحت الدنيا ، ونشرت الدين ، وأهدت الى العالم حضارة كبيرة غيرت مجرى التاريخ الانساني كله . »

— انتهى —

محمد واصحابه صلى الله عليه وآله وسلم

وكان محمد الى هذا فذاً في اختيار الرجال واجتذابهم واستخلاص طاعتهم له ، ولدعوته في حياته وبعد مماته ...

وسبب ذلك انه لم يكن يتنزل من اصحابه منزلة فاتح مغامر ، ولا منزلة جبار يريد في الارض علواً ،

الله اكبر
لا اله الا الله

٢٣

ولكن منزلة الاب الشفيق والمعلم الحكيم ، آخى بين المسلمين والانصار اول الهجرة ، واوجب عليهم التناصر والتعاون في الحياة ، وان يعمل كل واحد منهم للمثل العليا وخير المجموع ...

وكان في المدينة جماعة من اهلها يتزعمهم عبدالله بن ابي ، وقفوا من الدعوة وصاحبها ، موقف العناد والمعارضة ، ولقى الرسول منهم عنتاً عظيما ، ولكنه كان يداريهم ويحطاط لهم في اناة ورفق عظيمين ، من ذلك انه لمافرغ من قتال بني المصطلق ، اقبل المسلمون على ماء هناك يستقون ويسقون ، فازدحموا على الماء ، واقتتل عليه رجلان احدهما خادم لعمر بن الخطاب ، والاخر سنان بن وبرة وكان حلفاً للانصار .

فصرخ الحنبلي : يا للانصار ، وصاح الاخر : يا للمهاجرين

فغضب عند ذلك عبدالله ابن أبي ، وطفق يلوم من كان حاضراً من قومه لانهم أحلوا المهاجرين ديارهم ، ولج به الغضب حتى قال :

— لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .. وهي المقالة التي سجلها القرآن الكريم ، وبلغت مقالة بن أبي رسول الله فاغتم لذلك غماً شديداً ، وكان عمر بن الخطاب عنده ، فأشار عليه بقتل ابن أبي ، فأجابه الرسول :

— فكيف يا عمر اذا تحدث الناس بان محمداً يقتل اصحابه ؟ .

ولكي يشغل الرسول الناس عن التحدث في هذا الامر أمر من فوره بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن من عادته أن يسير فيها. وراح عليه السلام واصحابه يطوون المراحل ويصلون النهار بالليل سيراً وسرى حتى بلغوا المدينة، واذا الحال قد تغيرت من جميع وجوهها، فهذا عبدالله ابن أبي قد اتى الى الرسول يحلف له انه ما قال ما بلغه عنه، وهذا ابنه يطلب الى النبي ان كان لا بد آمراً بقتل ابيه أن يتولى هو — الابن — قتله، فيقول له الرسول:

— « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا »

وهؤلاء رهط عبد الله ابن أبي قد استخزوا لسلوك صاحبهم وأصبحوا كلما أحدث حدثاً هم الذين يعنفونه ويؤنبونه. هنالك اقبل الرسول على عمر بن الخطاب وقال له:

— كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله، لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ...

فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله اعظم بركة من امري.

محمد والانصار

وكان عليه السلام قد خصّ المؤلفة قلوبهم من قريش وقبائل العرب من غنائم هوازن بعطايا جسام لم يُعط مثلها احد من الانصار، فوجد الانصار في انفسهم حتى قال قائلهم:

— لقى والله رسول الله قومه ...

ودخل عليه سعد بن عبادة وابلغه رأي قومه ، فقال له الرسول :

— فأين انت من ذلك يا سعد ؟

قال : ما انا الا رجل من قومي .

قال : فاجمع لي قومك في الحظيرة .

فلما جمعهم سعد اتاهم رسول الله ، فحمد الله واثنى عليه بما هو اهله ، ثم قال :

— يا معشر الانصار ! ما قالة بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها عليّ في انفسكم ؟ ألم آتكم ضُلالا فهداكم الله ، وعالة فاغناكم الله ، واعداء فألف الله قلوبكم ؟

قالوا : بل الله ورسوله أمنّ وافضل .

ثم قال : ألا تجيبوني يا معشر الانصار ؟

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل .

قال : « اما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم ، اتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك ... اوجدتم يا معشر الانصار في انفسكم في لعاعة من الدنيا تالفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم ، الا ترضون يا معشر الانصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله الى رحابكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ، ولو سلك الناس شعباً ، وسلكت

الانصار شعباً لسلكت شعب الانصار . اللهم ارحم الانصار ، وابناء الانصار ، وابناء ابناء الانصار » .

قال فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم .

وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظاً .

ثم انصرف رسول الله وتفرقوا .

اعمال وافعال

وكان رسول الله في تواضعه واخلاقه ورقته بالمكان الارفع ، كان يحاول ما استطاع الى ذلك سبيلا ان يلقي في روع اصحابه انه مثلهم ، فلا يسمح لهم بالوقوف له ، ولا يحاول ان يتقدمهم ، ولا ان يزاحمهم ، كان يعيش مثلهم يصلح ثيابه بيده ، ويحمل اغراضه بنفسه ولما مات لم يترك من بعده لورثته لا مالا ولا عقاراً ، حتى حصته من (فدك) اوصى خليفته من بعده — كما ذكر ذلك ابو بكر — بان يردها الى بيت المال ... فكان ذلك امراً مقضياً .

ومن المؤكد ان الهجرة الى المدينة تناولت سياسة الرسول ببعض التبديل من حيث علاقاته مع خصومه ، فقد كان في مكة مصلحاً يعمل لنشر دينه ، واما في المدينة فقد اصبح مشترعاً وقائداً وزعيماً ورسولاً .

ويظهر هذا التبدل في القرآن نفسه ، فالآيات التي نزلت في مكة مليئة بالصور الفنية الموسيقية المثيرة للعواطف ، واما في المدينة فالمنطق يتغلب على اكثر

الآيات ، التي اصبحت طويلة بخلاف الآيات المكية القصيرة .

النساء والرقيق

ولقد كان تعدد الزوجات عند العرب قبل الاسلام امراً عادياً فعمل رسول الله على حصر ذلك وتقييده ووضع الصعوبات في طريقه ، وكانت العادة قبلاً ان يأخذ الواحد الى العشر زوجات واكثر ، فاجرى الرسول للمسلمين من بعده الحق في اربع تحت شروط ، اهمها ان يكون ذلك لضرورة ، وان يكون من اليسر بحيث يستطيع القيام بنفقات زوجاته والعدل بينهن كل العدل .

وكذلك الحال في مسألة الرقيق ، فقد جعل حياة العبد سهلة لينة يسيرة هينة ، بعد ان كانت شديدة قاسية ، وجعل إعتاق العبيد من اعظم ما يتقرب به الانسان الى ربه ، كما منع من استعباد المسلم منعاً باتاً .

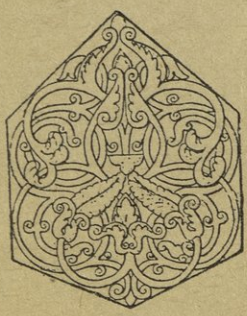

محمد يخلق الأبطال

محمد واصحابه

ما اعلم احداً كتب عن محمد حتى الان ، فما ظهر إن كان مني او من سواي ، ليس سوى دراسات متواضعة ما استطاعت الوصول الى تفهم هذه الشخصية التي تسمو وتحلّق كلما تقدم الزمن وتقطعت الاعوام ... محمد لم يخلق امة فحسب ،ولكنه خلق من العبقريات في هذه الامة ما لم ارَ له مثيلا فيما درسته من تاريخ الامم من سالف وحاضر ، فهذا ابو بكر ، وهذا عمر ، ما اعلم ان امة كان لها مثلهما ، رجلان قاما باعباء الخلافة في اخطر الظروف واشد الساعات حراجة ، فضحى كل منهما بنفسه وصحته وعائلته في سبيل المجموع ... وزادا ندى فاستشهدا في سبيل الله ومحمد ... فموقف ابي بكر في الثورة التي استطارت بعد وفاة محمد ، فريد عريق

في العبقرية والرجولة ، كان ابو بكر تاجراً قبل ان يعرف محمداً ، فاذا به بعد الاسلام يُخلق خلقاً جديداً ، واذا به الخليفة الكامل دون ما سابق استعداد ولا معرفة ..

اذكروا ان عمر بن الخطاب اتته الدنيا وهو قابع في المدينة ، يصدر الاوامر لقواده ، ويبعث البعوث ، ويأمر بتنظيم البلاد المفتوحة .. اتته الجواهر ، والخيل ، والمال ، والسلاح ، والاسرى من الرجال والنساء والاطفال. كل هذا اتاه ووضع تحت قدميه فما مدّ يده الى شيء ، ولا سمح لاحد من اهل بيته ان يمد يده لشيء ، ثم كان نصيبه كنصيب سواه من فقراء المسلمين ...

جاع الناس في عهده فجاع عمر ، اكل الزيت والخل ، والخبز الجاف ، فنصحه المسلمون ان لا يفعل بعد ان ساءت صحته وضعف جسمه ، فأبى ولم يسمع ... وهو الخليفة ، وهو امير المؤمنين ...

من خلق عمر ؟ من الذي روّضه ؟ حتى اصبح بهذه المثالية الرائعة ؟ ذلكم محمد ...

وهذه هند زوجة ابي سفيان زعيم قريش ، وقد حدثتكم عما فعلته بحمزه عم محمد ، وكيف لاكت قلبه باسنانها كرهاً بمحمد وحقداً عليه ، فاذا كان في طريقه لفتح مكة اسرع ابو سفيان الى قومه ينصحهم بالاستسلام اذ لا طاقة لهم بمحاربة محمد وانصاره ، فاذا سمعت هند منه ذلك اخذت بلحيته وقالت :

— اقتلوا هذا الشيخ الاحمق .

فاذا دخل محمد مكة اسلمت كما اسلم سواها ، فلم نعد نسمع لها خبراً ...

ولكن مهلا فان لها ولغيرها حديثاً عجباً ...

يموت محمد ويتولى الامر بعده ابو بكر ، ثم يموت ابو بكر ويقوم عمر بالامر من بعده .

معركة اليرموك

نحن في السنة الخامسة عشر للهجرة ، والمسلمون في اليرموك يواجهون عدواً صعباً وجيشاً كبيراً ، وخالد بن الوليد الذي كان السبب في هزيمة المسلمين يوم أحد ، ثم اسلم بعدها ، يرتب الجنود ويعبيء الصفوف ، والمسلمون قليل اذا قيسوا بالروم . كانوا نصف عدد خصومهم ما في ذلك شك وعلى اكثر تقدير ...

تهيأ الناس للقتال ، ورفعت الرايات ، فهذه الازد تحت راياتها ، وهذه قريش تحت لوائها ، وهذه قحطان قد وقفت صفوفاً في القلب ، وهذه همذان يتخايل شبابها ، وهؤلاء الانصار بعمائمهم الخضر .

بدأ الناس بالتهليل ، واخذ القراء يقرأون القرآن ... ملكت الجيش العربي روح جارفة ... وقوة فيّاضة ، وهزهم حب الموت ، فظهرت الابتسامة على وجوه الشباب ، ولمعت الامال في قلوب الصحابة الذين طال شوقهم الى محمد ، فهم يريدون اللحاق به والاجتماع اليه ...

وقف النساء خلف الجيش ، بينهن العجوز والفتاة اللعوب ، وقد اخذت كل واحدة منهن عموداً كبيراً ، وبعضهن سيفاً او رمحاً ... وقفن متحفزات ، إما لقتال الروم ان وصل احد منهم اليهن ، او لقتال ازواجهم واولادهم ان ارتدوا عن المعركة .

وهـذه هند زوجة ابي سفيان معهن ، وزوجها ابو سفيان بين الصفوف يحرض الناس على القتال ، ويدعوهم الى الصبر والتضحية ...

الهجوم

هجم الروم ، وتنادى العرب للحرب ، وعلا الصياح واشتدت الجلبة ، تنادت القبائل بشعارها ، فهذا يقول لبيك يا محمد ، وهـذا ينادي الله اكبر ، وثالث يصرخ يا لثارات مؤتـه ...

لقد بدأت المعركة وهجمت ميسرة الروم على ميمنة المسلمين بقوة تفوقهـا اضعافاً مضاعفة ... ارتـد بعض المسلمين الى حيث النساء فوقعوا بين نارين ، نار الروم ، ونار زوجاتهم وبناتهم ، وقد اخذن يصحن في وجوههم ...

— الى أين ؟ الا تدافعون عن دينكم واعراضكم ؟ لستم بعولتنا ان اردتم فراراً ، لستم آباؤنا ان لم تمنعونا ، اذهبوا فموتوا في سبيل محمد . فان لم تفعلوا فلستم منا ولسنا منكم .

كانت هند بين النساء ، فلما رأت زوجها ابا سفيان يتراجع مع المنهزمين اخذت بلحيته وجذبتها جذباً عنيفاً

وراحت تقول له :

– اخزاك الله ، اتتراجع انت ايضاً ؟

وكذلك ترون كيف ان هنداً عدوة محمد والاسلام لسنوات خلت ، تدافع اليوم عن محمد والاسلام ، كأحسن ما يدافع الرجال ، محتالة في ساحة الوغى كالابطال ...

عاد المسلمون فكرّوا ، فمزّقوا الجيش الروماني . وما هي الا ساعات حتى ارتد الروم وانهار الجيش وتعاورتهم سيوف العرب المسلمين ، فراحوا بين اسير وقتيل وجريح ...

نسمة محمد

محمد لم يأتنا بدين متواضع حلو ساذج عذب فحسب ، ولكنه انشأ امة وخلق من هذه الامة العبقريات ، وبث في المسلمين الذين عرفوه وشاهدوه روحاً وصفت لكم بعض آثارها ... فاذكروا ذلك ... واذكروا ان اجدادكم ملكوا العالم بروح محمد ... فلما خرجوا من الجزيرة لغزو الارض مشى النصر في ركابهم ، لا يمر بهم جبل إلا اقتحموه ، ولوّحوا براياتهم فوق قممه وهضباته ، ولا ينزلون مدينة الا هدموا ما فيها من اثار الوثنية ، واقاموا على انقاضها مسجداً لعبادة الله ربّ هذه الاسلامية المتواضعة...

اذكروا انهم ماتوا في سبيل الحريات والاستقلال والمثل العليا ، فاحتوتهم كل رقعة في الارض ، من اقصى الصين الى اقصى المغرب ، وفيأتهم الظلال الندية في اليرموك ،

والقادسية ، وغرناطة ، ومصر ، وشمالي افريقية ...

اني لانظر الى هذه الارض التي اصطبغت بدم الشهداء من العرب الاولين ، انصار محمد وخلفاء محمد ، هؤلاء الذين بلغوا مطلع الشمس ومغربها في فتوحاتهم ، والذين حملوا معهم الى البلاد المفتوحة الحريات ، والعدل ، والاخلاق ، والاسلام ، والقرآن ...

يخيّل اليّ ان الارض التي سلكوها فرساناً وركباناً ومشاة لا تحمل كل اسمائهم ، وان بعضها قد اخذ يتناساهم ويصطنع الاغراب والعُجمة حيث كان يجب ان يصطنع العروبة والاسلام . ولكن لا ، لن ننساهم نحن الشباب ... ابناء الجيل المقبل ... سنذكرهم ، وسنزرع فوق قبورهم الرياحين والآس والازهار الجميلة العذبة ، ثم نقيم فوق اجداثهم عمداً من المرمر ، نكتب عليها :

« هنا نرقد نسمة من روح محمد ... »

— انتهى —

الفهرس

صفحة

٥ مقدمة واهداء

١١ عهد الشباب

٢٠ ايام شاقة صعبة

٢٧ في سبيل الوحدة العربية

٣٦ الحنين الى الوطن

٤٥ خلق الانبياء

٥٥ محمد يخلق الابطال

تم طبع هذا الكتاب في دار الاحد – بيروت –
يوم الاحد الاول من شهر محرم عام الف
وثلاثماية واربع وستين – السابع
عشر من شهر كانون
الاول عام الف
وتسعماية واربع
واربعين

وطبع من هذا الكتاب ٦٠ نسخة
على ورق صقيل مرقمة من ١ – ٦٠
و ١٢ نسخة ممتازة لا تعرض للبيع .

OMAR ABOU-NASR YAFI

EVENTFUL HOURS

IN THE HISTORY OF

MOHAMED

Published by :

THE ARABIC EDITION COMMITTEE

DAR AL-AHAD BEIRUT

1944

MOMENTS PATHÉTIQUES

DANS L'HISTOIRE DE

MOHAMED

Edité par :

LE COMITÉ DES ÉDITIONS ARABES

DAR AL-AHAD BEYROUTH

1944

DATE DUE

J. Lib.
19 OCT 1965
3 JUN 1966
3 APR 1966

297.63:A165maA:c.1
ابو النصر ،عمر
مواقف مؤثرة فى تاريخ محمد بن عبد ا
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01010819

297.63:A165maA
ابو النصر

297.63
A165maA

297.63
A165maA
C.1